الأدب في العراق

﴿ السيد محمد سعيد حبّوبي العراقي ﴾

ولد في النجف ، وبها نشأ وحصل . وقضى شطراً من شبيبته في بلاد نجد حيث تشتغل أسرته بالتجارة . ثم هو اليوم في النجف يعد في صدور العلماء المجتهدين ، وعمره ستون سنة ونيف

تأثير الاقليم — للإقليم ولنوع المعيشة أثر كبير في تكوين أخلاق الانسان وملكاتهِ النفسية . واذا التفتنا الى من ترجم اليوم رأينا الشاهد على ذلك . الوسط الذي وُجد فيهِ الرجل ، أول ما وُجد ، كان مباءة علمٍ وأدبٍ وشعور ، والسماء التي رمقها ، أول ما رمق ، وضّاءة جميلة . الحرارة شديدة الوقع ، ولون النور ناصع بياضه . فأهّلهُ ذلك ، فوق ما في فطرتهِ من الاستعداد ، لأن يكون ملك الشعر والشعور ، وربَّ الفصاحة والبلاغة ، الساحر بيانه ، الفاتن عيانهُ

ولم يكن ذلك كلّ ما جعل الرجل كذلك ؛ بل انه وُجد في مهد البساطة ، وتمكنت من نفسه آداب الفطرة الصحيحة ، فصفا ذهنهُ ، واتّقد خاطرهُ ؛ وقد انتشق نسيم بلاد العرب الجافّ المعتدلة حرارته ، وشاهد الأودية والجبال والشعاب النضرة ، فانعكست في لوح باطنهِ صوَر تلك المشاهدات الغريبة ، وطالع رياض الجزيرة وأرباضها ، فأجال طرفه هناك في بساتين الطبيعة العامرة ؛ هناك في موطن الحب والعواطف ، موطن الدموع ، وفي مهبط الشعر والعشق والحياة الخفيفة

الهنية ، وفي محطّ رحال الكَلَف والهيام ، والضلال والحيرة

في النجف وُلد ، وفي نجدٍ والحجاز وُجد ؛ فجاء آيةً في الشعراء الحقيقيين الذين لم يوجدوا الاّ ليكونوا أمثلة للروح الإلهية المقدسة ، وأشباحاً للنفس الملكوتية الطاهرة . اولئك هم أنوار العالم ، وهم متمّمو نقصان الوجود

كلمة في شعره — فسدت معاني الشعر العربيّ ، قبل فساد ألفاظه ، بزمنٍ طويلٍ عهدهُ ، فخرج بالشعر كثير من ذوي القرائح عن غايتهِ ، وانقلبوا خرّاصين قوّالين ما لا يفعلون ، غالينَ في المدح ، وتأليهِ العظماء ، واكبارِ الجبّارين . وقد اكتسبهم بالمال عشّاق الشهرة والمجد الباطلَين ، فأفسدوا فطرتهم . على انه لم تخلُ تلك الفترات من نبيٍّ للشعراء يرسل كأبي العلاء ابن المعرّة . وقد كانت ألفاظ ذلك الشعر عامرةً على فساد معانيه . ثم جاء دور الألفاظ فأفسدها ابن نباتة والقيراطي وابن حُجة والصفدي والحلّي صفي الدين ، بصناعتهم اللفظية ؛ فعاد الشعر العربي ، من جهة المعاني ، مدحاً ورثاءً كلهما كذب واغراق ، ومن جهة الألفاظ ، كلماتٍ مهملة أو معجمة ، يتأمل كيف يضع الشاعر بعضها الى بعض ، أو كيف يقابل بعضها ببعض ، ناسياً ان ليس الشعر الاّ لحناً جميلاً تؤلفهُ الأرواح الشاعرة ، أو أنهُ ليس الاّ روحاً تبعثها ألحان الضمائر ، وهي منقطعة الى مناجاة الله والطبيعة

ويمتاز شعرُ مَن نحن بصددهِ ، برجوعهِ الى حقيقة الشعر في الاكثر إن من جهة الألفاظ ، وإن من جهة المعاني . أما الألفاظ فانها السهلة

الجزلة ، تجمع الى الرقة المتانة ، ونظمها يحوز الى فخامة التأليف ، وجلال التركيب ، جمال الأساليب . وأما معانيهِ فانها في الأغلب وصفٌ وتصوير ، وتجسيمٌ للخواطر ، ونعت الطبيعة ، ولهجة شديدة في العشق ، وفي الحب والأحباب . واذا تصفحتَ مجموع شعره رأيتَ سفرَ دموعٍ وعواطف ، ووجدت ثمة ديانة الشعراء ، وأهازيج الأرواح ، وتهليلاً وتسبيحاً يتصاعد من عالم النفس ، الى عالم الحس ؛ ويشهد على سلوكه ومذهبه في المحبة الخالصة مثلُ قوله :

والحبّ من دون البريةِ كلّها ديني الذي وشجتْ عليهِ عروقي

وقوله :

اني اتخذتُ هواهمُ حَسَباً أُعزى اليهِ ، وحبّهم شَرَعا

وقوله في موشح :

ليت دين الحبّ لما عرَفا لم تقُم بيعتهُ في عُنُقي

وقوله :

لستُ أنسى عهدكَ الماضي وانْ مرّ بالعينِ خيالاً لستُ أنسى
طفتُ سَبعاً حولَ مغناكَ كما قمتُ أقضي الصلواتِ الخمسَ خمسا

فها أنت ترى نوعاً من عبادة السالكين الذين تجردوا عن الاتصال بالمادّة ، وأصبحوا أرواحاً محصنة حائمة حول سراج الحقيقة ، حيامَ الفراش على النار . ولماذا تودّ اللحاق بالحقيقة ؟ ؟ لأنها للحقيقة خلقت ، ومن الحقيقة بدأت ، والى الحقيقة تعود

ولست أدري ماذا كان يلمّ بهذا الشاعر حين ينقطع الى التأمل في

جمال الطبيعة ؛ أكانت الطبيعـة تنقطع الى شهوده ، فتجدهُ مظهراً من مظاهرها الجميلة ، وتكاشفهُ ، فتفيض أسرارها الغامضة على لسانه ؟ بلى ! وانهُ لسانٌ ناطق للطبيعة ، فقد كان مرأى الأزهار يؤثر فيهِ ، وخطرانُ الغصون الميس يعبث بلبّه ، فيحملهُ على أن يقول :

يا بانة الجزعِ ، لا والنازلين بهِ ،　　ما كنتِ عارفةً لولاهمُ الهيفا

ويقول :

مالتْ فقلتُ لها يا بانةُ آعتدلي　　وأن جُبلتِ على التعطافِ والميَلِ

ويقول :

وذكرت في ذي البان ميسَ قدودِهم　　فطفقتُ من شغفٍ أضمّ غصونَهُ

ويظهر من لهجتهِ في شعره ، انهُ كان شديد التمسك بمبدإِهِ (الحب) تمسكاً يمثّل له أن الهلاك والحيرة منجاة وهدًى فيـهِ ، وان طغيانه عليهِ عدل وانصاف تلزم معهما الطاعة . فتراه يقول :

منَح الصبابةَ أضلُعـاً وفؤادا　　وعصتهُ سلوة مُقصرٍ فتمادى

وطغى عليهِ الحبُّ وهو أميرُه　　فأطاعَ جامح قلبـه وآنقادا

وربما أصيب ، كدأب الحائرين من هذه الطائفة المعذبة ، بمن لا عاطفة ، بل لا قلب له ، فيطعن في سلوكهِ ، فيضطر ان يواجـه هؤلاء بمثل قوله :

يا عاذِليَّ في الهوى تورّعوا　　واطّرِحوا نفسي ومَن تيّمهـا

قالوا الغرام مهلكٌ قلتُ لهم　　ما عيشتي ان لم اكن مغرمهَا

وقوله :

يا لائميَّ اليومَ في حُبّهِ　　مهلاً فمـا شانكما شاني

هاموا هيامي فيكَ لو أنهم قد عرفوا مَعناكَ عُرفاني

شعره — وقد آن لنا ان نُثبت شيئاً من شعره ؛ فهو الذي يقول :

لُح كوكباً ، وامشِ غصناً ، والتفت ريما فإنْ عداكَ اسمُها لم تعدكَ السيما
وجهاً أغرَّ وجيداً زانهُ جيدٌ وقامةً تُخجلُ الخطّيَ تقويما
يا مَن تجلُّ عن التمثيلِ صورتهُ لأنتَ مثّلتَ روحَ الحسنِ تجسيما
لو أبصرتك النصارى في كنائسها مُصوَّراً رَبَّتْ فيكَ الأقانيما
نطقتُ بالشعر سحراً فيكَ حين غدا هاروتُ طرفكَ ينشي السحرَ تعليما
اذا سفرتَ تولّى المتقي صنماً وان نظرتَ توقّى الضيغمُ الريما
من لي بألمى ، نعيمي بالعذاب بهِ ، والحبُّ أن تجد التعذيبَ تنعيما
ألقى الوشاحَ على خصرٍ توهّمهُ وكيف وشّحَ بالمرئيِّ موهوما
أشيمُ برقَ ثناياه فيوهمني تألّق البرقِ نجديًّا اذا شيما
يا نازلي الرمل من نجدٍ أُحبكمُ وإن هجرتم ففيما هجركم فيما
هل تواردونَ ظماء عذبَ مائكمُ أم تُصدرون الأماني حُوَّماً هيما
لي بَينكم ، لا أطالَ اللهُ بينكمُ ، غضيضُ طرفٍ يردُّ الطرف مسجوما
أنا رضيعُ هواهُ منذ نشأتهِ ونشأتي لن تروني عنهُ مفطوما
يا جائراً وعلى عمدٍ أحكّمهُ أعدلْ وجُرْ بالذي ولّاكَ تحكيما
حرَّمتَ وصلي كما حلّلتَ مقتلتي صدّقتُ شرعكَ تحليلاً وتحريما

وله :

دموعي وهيَ حمرٌ مُرسَلاتُ وشت بي عند أهلِكَ لا الوشاة
أتنكرُ يا أخا القمرينِ لثمي وفي شفتيكَ من شفتي سِماتُ
فلو نزعتْ لحاظُك عن قسيٍّ لما اختارتْ سواهنَّ الرماة

فسلْ كبدي فني كبدي سهامُ بأهدابِ الجفونِ مُريّشاتُ
وسلْ عطفيكَ كم طعنا فؤادي اذا علمتْ بموقعها القناةُ
أتحكي السمرُ قدَّكَ باعتدالٍ وما ثُقِّفتَ وهيَ مثقَّفاتُ

وله :

يا غزالَ الحِمى ، وقلتُ غزالاً ، حين أبصرتُ في ضلوعي كناسا
حسبوا غنجَ مقلتيكَ نعاساً ومن الغنج ما يكونُ نُعاسا
مَن كسا خدَّكَ الشقيقَ كساني من بَهارِ الضَّنا عليكَ لباسا
فاسقني، لاعطشتَ ، ثغراً وريقاً يومَ تسقي النديمَ خمراً وكاسا
وارعَ لي ذمةً لديكَ وعهداً يومَ تنسى العهودَ أو تتناسى
هبْ جميع الورى أحبّتك حبي غير أني قاسيتُ ما لا يقاسى

وله :

خطرتْ فجدَّ وشاحُها بخفوقِ فكأنها انشحتْ بقلب مشوقِ
وعلى الدلالِ تماسكتْ فتلاعبتْ كفُّ الصِّبى بقوامِها المشوقِ
شربتْ بوجنتِها دمي واستخدمتْ لخضاب أنملِها دَمَ الراووقِ
قمنَ الولائدُ اذ تهبُّ من الكرى من حولِ واضحةِ كنارِ فريقِ
قرَّبنَ قضبانَ الأراكِ فجلّلتْ بَرَداً تُقيِّدُه لثاتُ عقيقِ
وضفرنَ جثلاً من أثيثِ عثاكلٍ نُضّدنَ فوق المتن نضدَ عذوقِ
الحسنُ حوزتُها ولكن غيرُها بالمستعار أتى أوِ المسروقِ
والحبّ من دون البريةِ كلّها ديني الذي وشجت عليهِ عروقي
يا أسمَ جادكمُ السحابُ اذا سرى متجلّلاً برواعدٍ وبروقِ
جون اذا احتلب المهبّ ضروعهُ هدرتْ رواعدُهُ هدير فنيقِ
اني وثقتُ بحبكم فتكاثرت عللٌ تُذلّلهُ فقلَّ وثوقي

وله :

شمس الحميّا تجلّت في يَدِ الساقي فشعَّ ضوء سناها بين آفاقِ
سترتُها بفمي كي لا تنمَّ بنا فأجّجت شعلةً ما بين آماقي
خُذها كواكبَ أكوابٍ ويشفعُها ما يحتسي الطرفُ من أقداحِ أحداقِ
وبتُّ أُسقى وباتتْ وهيَ ساقيتي نحسو الكؤوسَ ونسقي الأرض بالباقي
ضممتُها فتثنّت وهي قائلةٌ بالغنج مهلاً لقد كسّرتَ أطواقي
مسودَّةُ الشعر لولا ضوء غرّتِها لما هدتني اليها غيرُ أشواقي
يهدي اليكَ بمرآها ومسمعِها جمال يوسف في الحانِ اسحاق

وقال :

للهِ يومَ وداعِهم من عُصبةٍ وقفتْ وقد سَرتِ الجمالُ وخادا
وقفتْ بهم أقدامُهم ان يركضوا أثرَ النياقِ فأركضوا الأكبادَا
فوق الركائبِ أنجمٌ لا تجتلى ورياضُ حسنٍ تمنعُ الرُّوادا
عَربٌ ، معاطفُ غيدِهم ورماحِهم سيّانِ ، كلٌّ ينثني ميّادا
بعثوا الخيالَ ، وما رقدتُ ، وليتَهم بعثوا اليَّ مع الخيالِ رُقادا
أُحيي الدُّجى أرَقاً كأنَّ نواظري خُلقتْ محاجرها قذًى وسُهادا
بذمام ذيّاكَ الغزالِ حشاشةٌ أُسرتْ ولم يَقبل فدًى فتُفادى
يا غارساً بالجزعِ روضةَ حسنِهِ ومخيفَ رائدِها قَناً وصعادا
كنّيتُ عنكَ بمن سواكَ مُوريًا بهوى سعادَ وما هويتُ سُعادا
أعرضتَ عني وادّعيتَ مودّتي أرأيتَ إعراضاً يكونُ ودادا
اني لأسترُ عِفتي بخلاعةٍ وأرومُ فيما أتحيهِ مُرادا
والضدُّ قد يبدو بمظهرِ ضدِّهِ أوَ ما ترى نورَ العيونِ سوادا
يا رَبعَ لذّاتي ومربعَ جيرتي حيّا معاهدَك الغمامُ وجادا

لا أبتغي للوصلِ فيكَ نهـايةً أبداً ولا للعيشِ فيك نَفـادا
لا والذي سَمَكَ السمواتِ العُلى وأقامهنَّ وما أقامَ عمـادا
لا أرتضي غيرَ الأكارم معشرًا يوماً ولا غيرَ العراقِ بلادا

وقال :

ومودّعٍ للركب ودَّ بأنهُ لو قد أسالَ عن الفؤادِ شؤونَهُ
لم تقطعِ الاظعان ميلاً في السُرى الاّ وكحّل بالسُهادِ جفونَهُ
قطعتْ بهم سهلَ الغميم وَحزنَهُ فسقى الغميمُ سهولَهُ وحزونَهُ
فترى الدموعَ تخالُها بحراً طمى وترى الحمولَ تخالهنَّ سفينـهُ
يا قلبُ حسبكَ بالغرامِ رهينـةً شطَّ الغريمُ وما قضاكَ ديونهُ
فلأُنهكنَّ القلبَ من حسراتهِ يوم الترحّل او يُجنَّ جنونهُ
قالوا أشابَ البينُ مفرقَ رأسهِ كلاّ ولكن قد أشابَ عيونهُ
وذكرتُ في ذي البان ميسَ قدودِهم فطفقتُ من شغفٍ أضمُّ غصونهُ

وقال :

يا ساكني الزوراء حسبُكمُ النَّوى فلقد وهى جلدي بكم وتجلّدي
أمرَضتموني بالبعـادِ وانمـا أقصى شقائي ان أراكم عوَّدي
كنتمْ عليَّ النائحاتُ صوارخاً ان لم اكنّ في هَواكم حُسَّدي
موّهتُ عنكِ بلَعلعٍ وبحـاجر ولأنتِ من تلك العبارة مقصدي
فليحلَّ بالزوَراء عيشُكِ سائغـاً إني أغصُّ بكلّ عيشٍ أرغـدِ
وليهنِ أعينَكِ الرُّقادُ فانَّ لي عيناً اذا رَقد الملا لم ترقـدِ
إن أسلمتكِ يدُ الغرام فإنني مُلقىً بقبضتهِ أروحُ وأغتـدي

وله من قصيدة :

أجدّكِ علّمني لوصلِكِ حيـلةً فأنتَ الذي علّمتني الهيَمانا

وهبْ انَّ سمعي قانعٌ بحديثكم ... أللعينِ مَعنىً أو تراكَ عيانا
الى النزوانِ العيسُ تلوي أعنَّةً ... وهيهاتِ ليست تملكُ النَّزوانا
وليست تشيم البرقَ من أبرقِ الحمى ... بلى! قد تشمُّ الشيحَ والعَلَجانا
فيا أخويَّ المدلجينِ كلاهما ... اذا جزتما الجرعه فانتظرانا
ويا صاحبي لا تلوِ عنها مُرجِّجاً ... هلمَّ لنلقى من نحبُّ كِلانا
وقمْ نجتلي النارَ التي قال خابطٌ ... من الناس حسبي ان رأيتُ دخانا
وان لمتَ فاقصد لمشرقِ ضوئها ... وأمَّ شروقَ الضوءِ لا الاكمانا

وله :

وإن أقضي بحبكِ مستهاماً ... فكم قبلي قضى صبٌّ معنَّى
قضى القيسانِ قبليَ : قيسُ ليلى ... من الهجرِ الطويلِ وقيسُ لبنى

هذا وقد أثبتُّ كل ما مرَّ اشارة بذكر اديب دقَّ خطرُه ، وتطلَّس أثرُه ، لنبوغه بين قومٍ لا يحتفون بنابغة ، ولا يحتفلون بنبيل ، فحَمله استخفافهم بالشعر وذويه على الاشاحة عنهُ بوجهه ، ودعاهُ اهتضامهم للادب وأهله ، الى الاضراب عن معاناته ، فانصرف منذ عهدٍ بعيد عن قرض الشعر ، ولولا ذلك لعُدَّ اليوم في صفِّ المتفوِّقين من غواة هذا الفنِّ الجميل ، وقليلٌ ما هم

(النجف) محمد رضا الشبيبي

(الزهور) رأى القراء في شعر الشيخ الحبوبي وفي ما نشرته هذه المجلة سابقاً عن ادباء العراق ان في تلك الاصقاع شعراء مجيدين يذكروننا بأسلافهم فحول شعراء العرب . فنشكر لكاتب هذه المقالة انه عرَّف الى ادبائنا اليوم واحداً من هؤلاء الشعراء النابغين